والصنمية ، مما يجعلنا نصغي اليه بأذن مزدوجة : اسلامية وجاهلية ، حين يقول : « الصفة الوحيدة التي تخولني الحديث عن الشعر القديم ، هي حبي للشعر العربي القديم · » (ص ١٨٦) · هذا الحب لا يجدد مسألة الاستشراق ، لكن الطريقة التي يترجم بها بيرك بعض المعلقات ، هي ذات أسلوب منجود ، يكاد يغني ، ومرصع بتنغيمات سجعية على شاكلة ما نجده عند سان جون بيرس : ان شيئا صميميا وجوهريا يتكشف عند هذا الرجل الغسقي الذي يمضي وقته في كتابة اسفار مملة ، موادها مهربة ، وذلك ليختفي وراءها فلا تبصره عيناه · ان ما يقوله بشعور أدبي ممتلىء ، عن عدم تمفصل الاصل الذي تنبثق منه رسالة القرآن ، وما يردده بسطحية عن كينونة الشعر او الاطلال المندرسة في صحراء البدو ، يذكرنا بالسراب المتهاوي للغرب كما كان يتغنى به فولني Volney أمام الاطلال الفرعونية ···

لقد دخل الاستشراق ، مع حملة نابليون ، في امبريالية المعرفة المطلقة · ومع جاك بيرك، يلتقي الاستشراق من جديد بالنزوة النوستالجية لاندثاره ·

حاشيـــة II

في معنى نبيل ، يكون المستشرق هو الذي يسهر على فجر الفكر · وهذا اقتراح لا يجب ان نعتبره بمثابة استعارة ظرفية ، بل هو يعبر عن موقف جذري يرى ان الشرق والغرب لا يمكن اختزالهما الى توزيع جغرافي أو الى أية مغايرة ثقافية · انهما يدعوان ، في مسافتهما الغارقة الى المسألة الجوهرية للكينونة حسب بروتوكول فجري وزواجي · بروتوكول لا يحيلنا الى فلسفة نورانية تحور ، عن طريق صور شمسية ، الميلاد اللا مفكر فيه لكل شرق ولكل غرب · ان هذا الميلاد يملي انشودة اليقظة · ومن ثم فانه ، دوما ، حدث خارق للعادة ، لا يعطي قط كموهبة فوق طبيعية من لدن السماء · ان هذا الميلاد، باعتباره موهبة ، وذاكرة ضائعة ، هو احتفال باللامفكر فيه · ذاكرة ضائعة بمقدار ما تهب الموهبة لشركاء لحظة انتشاء · لكن ، لكي ترتاد مثل هذه الموهبة محيط الآخر ، فانه يتحتم عليها ان تكتمل ايضا حسب فكر للمغايرة ·

استشراق جذري · لا شك أن مسألة الشرق الاقصى هي بحد ذاتها متطرفة ، خارجة عن القياس بالنسبة للمسألة الافريقية ـ العربية التي تحدثنا عنها في هذه المقالة · انها متطرفة بما تعد به ، غير أن الشرق الاقصى ليس بأي حال ، فوق ـ طبيعي · انه يستقبل ، على طريقته ، من يسير نحوه ، ومن اتجه باستمرار · كذلك فانه لا يتحتم الانتظار الى ما لا نهاية لمعاودة الحوار · ان العالمية الامبريالية للتقنية لا تعلن بالضرورة قيام فكر موحد يسكن بتمايز في « الماهو ـ نفسه » · انها ، على العكس ، يمكن أن تؤدي الى استبعاد لم يسبق نظيره ·

ان جوته يدلنا على الطريق في قصيدته الرائعة « الديوان الغربي ـ الشرقي » :

الغرب ـ مثل الشرق

يمنحانك تذوق أشياء خالصة

أترك هنا الاهواء والمقشرة

اجلس في الوليمة الكبرى :